

الخط العربي: مقال في آفاق الاستثمار اللساني!

■ أ.د.خالد فهمي - مصر

(١) مدخل: الخطاطة أو الكتابة العربية: غابة معرفية!

يمثل الخط العربي أساسا لعدد كبير من العلوم التي ظهرت في الحضارة العربية الإسلامية، وعن طريقه وبفضله تطورت مجموعة من فروع العلم.

والخطاطة أو «علم الخط» هو العلم الذى يبحث في أصول الكتابة ونشأتها وتطورها والتعرف إلى الخطاطين «على حد تعبير الدكتور عبدالعزيز الدالي في كتابه (الخطاطة، مكتبة الخانجي، مصر سنة ١٩٨٠م ص ٥).

وفحص هذا العلم يقود إلى إدراك حقيقة جلية، تتمثل في أن علم الخط شكّل غابة معرفية نهضت بعدد من الميادين المختلفة، وأسهمت في تقدمها وترقيتها وتطويرها، ومن أهم هذه الميادين:

أولاً: مجال تطور الكتابة العربية، أو الرسم. وقد كانت المحطات الأساسية في تطوير الخط العربي والانتقال به إلى آفاق غير مسبوقة، كانت بسبب من إرادة تيسير قراءة القرآن الكريم، وتقريب أمره للمتعبدين والمتعلمين.

ثانياً: مجال الفنون والجماليات. لقد كان استثمار الخط بما هو قاعدة أساسية تأسس على هديها منظومة الفنون الجميلة في الحضارة العربية الإسلامية، يمثل ركيزة أولية في كل تطبيقات تجويد هذا الخط الذى افتتح أمره إرادة تحسين خطوط المصحف. وكان أول من جود خط المصحف هو خالد بن أبي الهياج؛ وتوالى ظهور الخطاطين المجودين على امتداد التاريخ، فظهر مالك بن دينار سنة ١٣١هـ، والوزير ابن مقلة سنة ٣٢٨هـ، وابن سعيد القارئ سنة ٤١٠هـ، وابن البواب سنة ٤١٣هـ، وياقوت المستعصمي سنة ٦٢٦هـ.

ثالثاً: المجال الحضاري. وقد أسهم تطور العناية بالخط العربي في تطوير عدد من التطبيقات الحضارية المادية، فظهرت مدارس جمالية في عدد من الحواضر الإسلامية في

الشام والعراق، ومصر المملوكية والسلجوقية والعثمانية، وتطوير الأقلام وتنويعها، وتطوير مواد الكتابة، وتنويع الابتكارات في مجالاتها المختلفة، واشتبك هذا مع علوم التاريخ والآثار وغيرها.

رابعاً: المجال اللغوي. كما أسهم أمر العناية بالخط العربي في تنمية بعض فروع الدرس اللغوي، ما أسهم في تفسير عدد من الظواهر اللسانية على هدىً من إنجازات تاريخ الخط العربي، حتى غدا علم الخطاطة graphics فرعا مهما من فروع علم اللغة، يمتلك جهازا اصطلاحيا ومستقرا.

(٢) تجليات الخط العربي: مقال في مشاهير الأعلام

تجلّت قيمة الخط العربي في هذه الشجرة الملتفة لعظماء الخطاطين على امتداد التاريخ، واتسعت اتساعا كبيرا، حتى استقلت معاجم كاملة للتأريخ لخطاطي بعض الأقطار على ما يظهر من معجم الخطاطين الأتـراك مثلا.. وفى هذا السياق تجلت أسماء رائدة وعظيمة لأعلام الخط العربي مثل:

- علي بن أبي طالب والحسن البصري، مثلان لجيل النشأة.
- خشنام وابن أبي الهياج وابن دينار وقطبة المحرر والضحاك بن عجلان، ممثلون لجيل التأسيس.

ثم اتسعت الشجرة وتفرعت غصونها اتساعا وتفرعا مثيرا للإعجاب والتقدير، فظهرت الأسماء الآتية، وهى مجرد علامات على طريق لم ينقطع:

- ابن مقلة المتوفى سنة ٣٢٨هـ - الأحدب المزور سنة٣٧٠هـ.
- ابن أسد الغافقي سنة ٤١٠هـ - السمسماني ٤١٥هـ.
- الحسن ناهوج سنة ٥٨٨هـ – القفطي ٦٢٤هـ.
- ياقوت المستعصمي - ابن العفيف سنة ٧٣٦هـ.
- الطيب شاه السهرودي سنة ٧٢٠هـ - الزفتاوي سنة ٨٠٦هـ.
- المرعشي سنة ٨٩٦هـ - الأماس سنة ٩٥٧هـ.
- ابن الصايغ ٨٤٥هـ.

وفى هذا السياق، تظهر أدبيات كثيرة معاصرة اعتنت بالترجمة لهؤلاء الأعلام عناية خاصة، وظهرت مؤسسات أكاديمية وبحثية قامت من أجل الوفاء بهذا التاريخ، ومنجز أعلامه الفني والجمالي.

(٣) الخط العربي واللسانيات العربية: مقال في آفاق الاستثمار!

إن فحص اللسانيات المعاصرة يكشف عن انتماء الخط إليه، وهو بعض ما يفسر عناية معاجم المصطلحات اللغوية بتحرير مجموعة من مصطلحات علم الخط، على ما يظهر من عمل الدكتور رمزي منير البعلبكي في معجمه الرائد: معجم المصطلحات اللغوية (انظر: ص ٧٦٦-٧٦٧ مسرد مصطلحات الخطاطة، ومعجم دافيد كريستال سنة ١٩٩٢م للمصطلحات اللغوية ص ١٦٠ وما بعدها.. بدءا

من المدخل: graph).

وقد تميزت سهمة الخط العربي في دعم بحوث اللسانيات العربية على امتداد تاريخها تميزا واضحا، اتخذ مجموعة من المراحل والحقب الزمنية والموضوعية، يمكن إجمالها فيما يأتي:

أولاً: مرحلة معرفة قواعد الكتابة العربية، والفروق بين المتداخلات والأشباه الكتابية

وهذه المرحلة الأولى اتخذت شعارا موضوعيا يستهدف التمييز بين عدد من الحروف التي ينشأ بينها اضطراب وتداخل مثل: التفريق بين ما يكتب بالألف والياء، وبين ما يكتب بالتاء والهاء إلخ.

وقد ظهرت كتابات مهمة في هذا السياق تنوّعت أحجامها وخصائصها صغرا وكبرا، واختلاطا واستقلالا.

وعرفت من أدبيات هذه المراحل:

أ- أدب الكاتب، لابن قتيبة سنة ٢٧٦هـ، وشرحه لابن السيد البطليوسي سنة ٥٢١هـ.

ب- أدب الكتاب، للصولي المتوفى سنة ٣٣٦هـ.

ج- صناّع الكتاب، للنحاس المتوفى سنة ٣٣٧هـ.

ثم ظهرت بعد ذلك بعض الكتب في مسائل مستقلة، تعالج بعض مشكلات الخط العربي مثل: عمدة الأدباء في معرفة ما يكتب بالألف والياء، لأبى البركات ابن الأنباري المتوفى سنة ٥٧٧هـ.

وكانت الغاية الأساسية من هذا الجهد العلمي التراثي هي ضبط الكتابة العربية، سعيا نحو شفافيتها ونقائها، طلبا لشفافية الرسائل المعرفية التي تحملها هذه الكتابة، بما هي الوسيط المادي الحامل لفكر الأمة العربية.

ثانياً: استقلال العناية بخط المصحف

وفى مرحلة تالية تصنيفيا، وإن كانت هي الأساس المنشئ والمطور لقواعد الخط العربي، استقل التأليف في ميدان الرسم المصحفي رصدا، وجمعا، وتأريخا، وقد ظهرت أدبيات متنوعة خادمة لهذه الأغراض، مثل:

أ- البديع في معرفة ما رسم في مصحف عثمان رضى الله عنه، لابن معاذ الجهني سنة ٤٤٢هـ.

ب- المحكم في نقط المصاحف، للداني، المتوفى سنة ٤٤٤هـ.

ج- مختصر التبيين لهجاء التنزيل، لابن نجاح المتوفى سنة ٤٩٦هـ.

وكانت الغاية الكبرى لهذا الجهد العلمي الممتد متركزةً حول حفظ النص العزيز عن طريق حفظ رسمه وخطه، وحياطته النص الكريم في تجلياته المكتوبة بكل أنواع الحفظ.

ثالثاً: استثمار التراث الخطي للمكتوبات العربية، وللقرآن الكريم لسانيا أو لغويا.

وكانت المرحلة الحديثة خطوة جديدة في استثمار الخط العربي، ظهرت علاماتها في دراسة هذه الخطوط لسانيا أو لغويا، بقصد تفسير عدد من الظواهر اللغوية؛ بما يجعل

دراسات الخط جزءا أصيلا يقع في الصميم من دراسات فقه العربية، واتخذت هذه المرحلة مسارين ظاهرين هما:

١- دراسة الخط العربي لغويا.

٢-دراسة رسم المصحف لغويا.

ومن أشهر من درس مشكلات الخط العربي وأثرها في عدد من الأوهام في عدد من المسائل اللغوية الدكتور رمضان عبدالتواب، رحمه الله، سنة ٢٠٠١م، إذ صنع في كتابه: فصول في فقه العربية (طبعة مكتبة الخانجي بالدمام في السعودية سنة ١٤٣٣هـ، مراجعة د. خالد فهمي ص ٣٥٧ وما بعدها)، فصلا بعنوان مشكلة الخط العربي وأوهام اللغويين، توصل فيه إلى الآتي:

أ- أدى عدم إدراك وجود رموز خطية أو كتابية للحركات أو أصوات العلة إلى عدد من الأوهام اللغوية، تتعلق بمحل الحركة، وتتعلق باعتبار حروف المد أصواتا صامتة!

ب- عدم إدراك بعض اللغويين لإمكان استقلال الحركة بالنطق، بسبب عدم تمثيلها خطيا أو كتابيا.

ج- أدى ازدواج النظر إلى كتابة (الألف والواو والياء) إلى عدد من الأخطاء، في النظام الصرفي للعربية.

ومن جهة أخرى، ظهر في العصر الحديث اتجاه آخر مستقل، اعتنى بدراسة الرسم العثماني الخاص بالقرآن الكريم لغويا، للكشف عما ينضوي تحته من مظاهر نافعة في التأريخ، لواحدة من أهم الحقب التاريخية لهذه اللغة العريقة.

ومن أشهر هؤلاء الذين توقفوا أمام دراسة رسم المصحف وفق الأصول العلمية لعلم اللغة: الدكتور غانم قدوري الحمد في كتابه الرائد: (رسم المصحف: دراسة لغوية تاريخية). وكان من أهم نتائجها عدّ الكتابة أو الرسم وسيلة لحفظ القراءات الثابتة بالنقل.

وقد كشفت مراجعة الإسهام المعاصر في ميدان خدمة كتابة المصحف أو خطه، عن وجود إسهامات جيدة اتجه أكثرها نحو التأريخ مثل:

١. رسم المصحف ونقطه، للدكتور عبدالحي الفرماوي، أنجز سنة ١٩٧٥م.

٢. رسم المصحف وضبطه بين التوقيف والاصطلاحات الحديثة للدكتور شعبان إسماعيل سنة ١٩٩٩م.

٣. ضبط المصحف: نشأته وتطوره، للدكتور عبدالتواب الأكرت سنة ٢٠٠٨م.

ومن كل هذه المسارات والمراحل والجهود يتضح لنا أن الخط العربي تطور بشكل رائع بسبب إرادة خدمة القرآن الكريم ابتداء، وقد كان استثماره فنيا وجماليا مؤثرا جدا في التفريع والتطوير الذى أصابه.

وقد ظهرت مع مرور الوقت دراسات تدرس الخط بلاغيا، وتحلل جمالياته، مستثمرة إمكانات البلاغة العربية من تشبيه واستعارة، في منحى جديد يتعامل معه، بوصفه نصا جماليا مقنعا ومؤثرا في الوجدان العربي المسلم على امتداد تاريخه.